بكاء ، وشعر ، ونقد

نظرة في ناحية من « الادب » الحاضر

بقلم ادوار ابراهيم حنين

حمل امين الريحاني ، في يوم من حزيران الفائت ، حملة شديدة على ابيات عاطفية لبشاره الخوري (ا يردّدها الناس والفونغراف في بلادنا وما جاورها ، بحجة انها تغرق بالدموع وتنزّ عن الضعف . فكانت تلك الحملة مبدأ مناظرات ومناقشات ومهاترات تناوبت اسابيع طويلة على صفحات الجرائد البيروتية ذفم اصحابها الى الطلام على الادب ، والبكاء ، والشعر ، والنثر ، والنقد ، والتجديد ، والتقليد وما شاكل من مفردات اضطرب في تحديدها اطراف المتناظرين وقد ادى كل ذلك الى حتتيين : « اتتر الشعراء ! » و « اجل نحن الشعراء ! » يستريان مظهرًا وقيمة ، وقد لا يستحقان هذا النقد الطويل ، الا اننا نشرناه كي لا يتوهم الاديب الغريب انهما — وقد ظهرا ختامًا لتلك المناقشات — يمثلان الحالة الحاضرة من ادبنا العصري ، فيبخس هذا الادب حقه .

توطئة

يجتاز الادب العربي اليوم في لبنان مرحلةً يُخاف عليه من مخاطرها . فمن زاعم انه المجدّد المُصلح ، فيثور على « الادب الباكي » طالبًا دكّ ما شيّدته القرون والاجيال ؛ ومن نافخ في البوق « ان الادب الحديث تضرّع اليه لينصره على الادب القديم ويريحه من ايادي الكذّابين المنافقين » ؛ الى مغرور ينظر نفسه بعين مكبّرة فيخال انه نبيّ ملهم بعث به الله الى عباده في هذا القرن المشرين ليخلّصهم من سخافات انبيائه الاقدمين ؟ الى معلن « تمزيق » هذا وذاك من الادباء الذين احيوا في عصرهم اللغة والادب والبحث العلمي الصحيح ورفعوا لها منارًا عاليًا في سماء الشهرة .

ومن ميزات الادب في هذه المرحلة التي نجتازها اليوم ان هؤلاء المجدّدين ،

---

١) هي الابيات :

الهوى ، والشبابُ ، والامل المـ ـشودُ توحي فتبعث الشعر حيًّا ،
والهوى ، والشبابُ ، والامل المـ ـشودُ ضاعت جميعها من يديّا .
يشرب الكأس ذو الحجى ، ويبقّي لغدٍ في قرارة الكأس شيًّا ؛
لم يكن لي غدٌ ؛ فافرغت كأسي ، ثم حطّمتها على شفتيّا !...

المصلحين ، المناضرين ، المزّقين ، الذين جمعتهم غـاية واحدة — على علم او على غير علم منهم — يتناوشون ويتشاغبون كأنّ الله قد سلّط بعضهم على بعض ليأكل بعضهم بعضاً ويذهبوا من حيث اتوا.

وليس من الصعوبة في شيء تأريخ هذه الحركة الفكرية القريبـة النشأة الحديثة الميلاد. لقد غرس بذورها الاستاذ امين الريحاني في يوم من ايام حزيران الملتهبة، فاخذت تنمو وتكبر الى ان شجرت وازهرت وعقدت واثمرت، ومما يجدر بالذكر ان النموّ كان سريعاً جدًّا . فرأينا من هذه الاثمـار اشكالاً والواناً وقد كثرت ما بينها الاثمار الرجعيّة. وكان منها كتيّبان ستتناولهما بالدرس تباعاً.

١ً انتم الشعراء

كان يقرأ الرائع والجاني ، في شوارع العاصمة اللبنانية وقرى الاصطياف ، لبضعة اشهر خلت ، خير كتاب جديد للاستاذ الريحاني كان مزمعاً ان يحـدث ثورة في الادب ، بل كان مقدراً له ان يقوم بحملة شديدة على الادباء . وان في اسمه «انتم الشعراء!» اعلاناً لهذه الحملة. اما المسمى فمؤلف صغير يناهز ٢٠ سنتيمترًا طولاً ، و١٤ سنتيمترًا عرضاً ، طبع في مطبعة «الكشاف» البيروتية ، على ورق صقيل، باحرف جلية وقع في ٩٢ صفحة ، وغلّف بورق ملوّن يختلف عن ورق الكتاب بقليل من السماكة والخشونة.

هذا هو انتم الشعراء ماديًّا اما مضمونه فسنحلّله تدريجاً . واليك ابتداء عناوين المقالات التي يحتويها هذا الكتيّب كما جاءت في الفهرست :

قلوب تذوب — داء البكاء — عشر وصايا الشعراء — ربّة الشعر — الشاعر والوطن — الشاعر والفيلسوف — الالم الشخصي والقومي — الدموع — دموع الشاعر — ندب وانتداب — خمس عشرة وصية اخرى للشعراء.

يتضح من هذه العناوين ان «انتم الشعراء» حلقة جديدة من سلسلة مقالات الريحـاني ومؤلفاته التي يهاجم بهـا الشعراء اذ يقبح دموعهم وينكر عليهم بكاءهم ؛ فهو اذًا سهم ، ربّما كان آخر مـا في جعبته من الاسهم ، يطلقه

من كنانته رامياً به وجوه شعرائنا الافاضل . فهل اصاب ام ارتدّ خائباً ؟ هذا ما سنحاول درسه في النقد الحاضر .

حجر زاوية هذا النقد ، بل محور الخلاف بين الريحاني والشعراء ، تحديد الشعر . ولهذا ترانا مبتدئين به فنقول ، مشيعين جمهور الشعراء والنقّاد ، بل متبعين الطبيعة نفسها : ان الشعر هو التعبير باسلوب انيق عمّا يجول في النفس من العواطف الشخصية رقّت او غلظت ، لانت او اشتدّت غير مستثنين واحدة منها . والعاطفة تكون شخصية اما لانها للشاعر ومنه ، واما لان الشاعر يشاطر من يتكلم عنهم عاطفة مشتركة .

وقد عبّر عنه الاستاذ فؤاد افرام البستاني في « روائعه » اذ قال : «الشعر هو مجمل عواطف النفس ونزواتها ، يبدو تارة زفرات حرّى يصعدها صدر هائج ، وطوراً ابتسامات عذبة تعلو ثغراً جميلاً . وقد تتّسع دائرته بعض الاحيان فيعبّر عن عواطف اكثر من نفس بل ربّما عبّر عن عواطف أمة باسرها »

والشاعر يكون القائم بهذه المهمة اي «هو الذي يشعر ويحسّ بعواطفه الشخصية او بعواطف غيره من حبّ وبغض ، وفرح وحزن ، فيراها منعكسة على مرآة نفسه ، فيبرزها الى الخارج بطريقة تجعلنا شاعرين بكل تلك العواطف .»[1]

اذا ما وقفنا على بيّنة من ذلك فهمنا الشعر كما يجب ان يفهمه كل اديب ، اصبح من النافل ان نخطو خطوة اخرى لهدم كل ما بناه الريحاني في ٩٠ صفحة كاملة ، اذ انه يقول ان البكاء ليس من الشعر في شيء . ونحن نقول ان البكاء يصدر عن الالم ، والالم عاطفة ، وكل عاطفة ، مهما قيل ويقال ، ينبوع للشعر .

فان كان الامر على ما قلنا ، وان كان هذا النذر القليل يكفي لهدم نظرية الريحاني ، فلمَ لا نكتفي بما بلغنا اليه ونسكت عمّا بقي ، مريحين نفسنا والقرّاء من الم البحث والتمحيص والم المطالعة وكدّ الذهن ؟ ذلك لان الريحاني لم يكتفِ بالتصدي لهذه الحقيقة الكبرى بل انه تعدّاها الى غيرها :

---

١) الروائع : الجزء الثاني : الشعر الجاهلي ، صفحة ٤

وابدى في طريقه اليها نظريات شتى انتقادها والتعليق عليهـا فرض واجب . والامانة الادبية تقضي بان لا ننقد المؤلف في نصف ما يقول ونطمس النصف الآخر عابرين عنه ساكتين .

نبتدئ « بقلوب تـذوب » و« داء البكاء » ، متخلصين الى « الدموع » و« دموع الشاعر » و « ندب وانتداب » ، لما لامسنا فيها من المشابهة المعنوية واللفظية . وبعد ذلك ننتقل الى مـا يبقى من المقالات في الكتاب . وعند الانتهاء من هذا العمل التحليلي المفصل نباشر عمـلاً آخر مجملاً نعرض فيه ما يبدو لنا صحيحاً عن الاديب وكيفية تفكيره وانشائه .

فالريحاني ، في مقالتيه الاوليين «قلوب تذوب» و«داء البكاء» ، ينسب الى ابناء بلاده ، والى ابناء الشرق العربي اجمع ، كثرة البكاء والاكثار من الدموع . فمن قوله : « في هذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة المترهلـة بل القلوب المائعة الذائبة . قلوب تذوب كلما ناح الحمام ، قلوب تميع كلما اهتز الورد في الاكمام ، قلوب تسيل هياماً كلما تلألأت شمس الاحلام ، قلوب مائعة ذائبة على الدوام . . . » الى قوله : « اننا والحق يقال اكثر بكاء واشد انتحاباً من جميع الشعوب . . . انه لمرض يفوق انتشاراً كل امراضنا . . . فتراه يفتـك بالسياسيين ورؤساء الدين كما يفتك بالادباء والتجار والفلاحين هو وباء الدموع وباء النحيب والنواح . . . »[1] نراه يتحامل على ابناء جلدته تحاملاً لا مبرّر له ، فيعيب عليهم ما ليس بهم ، او ما هم عليه كغيرهم من الشعوب . وهب ان الحقيقة في جانب الاديب ، فهل يُلام الشرق العربي على عاطفة له رقيقة وعلى قلب له حساس ؟

ولا ادري في اية مناسبة رأى الريحاني السـاسة عندنا ورؤساء الـدين فينا يبكون وينتحبون حتى امكنه ان يطلق على جميعهم هذا الحكم المخطئ في عمومه وشموله ؟

هذا الذي يخيل قارئه وسامعه يخال اننا ، في هذه البلاد ، في مأتم مستديم .

---

(١) انتم الشعراء ، ص ٤-٦

واننا نسبح الله بالبكاء والعويل، ونلعن الشيطان بالبكاء والعويل، ونتوصل الى مآربنا السياسية والادبية ، وغيرها من المآرب الحيوية ، بالنواح والبكاء والعويل . ويظن سامع هذا الكلام ، اذا ما كان ممن يركنون للريحاني ، اننا في وادي الدموع ، وان لغة التفاهم ما بيننا النواح والبكاء والعويل . هذا ما يظنه البعيد ان سمع الريحاني يتكلم . ولسنا في لبنان ولا في شرقنا العربي اجمع على شيء من ذلك .

واخاف على ذاك البعيد الذي يتخذ كتاب الريحاني هذا مرشداً له في تفتيشه عن لبنان ، وعن هذا الشرق الضاحك ، ان يسير في الكون الواسع هائماً على وجهه يفتش عن لبنان الموصوف فلا يراه ويمرُّ به ويخالط ساسته ورؤساء الدين فيه وتجاره وفلاحيه وادباءه ويعبر عنه ، غير شاعر هل مرَّ في لبنان ام لا ، فيهم ويهيم . . .

واعجب ما عجبت له في هذا المثال تلك العقلية التي لم اعرف بها بعد رجلاً اديباً يدعي العلم والفن والفلسفة وهو على شيء منها جميعها — على ما يقال — والتي تظن ان حاملي القلوب الحساسة والعيون الدامعة « هم اعجز في المحن والنكبات من فراخ القطا واجبن من صغار الارانب » .

فجبان هو مار بطرس اذاً ، وجبان هو نابليون . . . وجبان سعد زغلول لانهم بكوا . . . واراقوا دموعهم في مواقف عديدة . فمار بطرس مثلاً لم يكن الا إمام الباكين . وقد نقلت الينا الاسطورة ان الدمع اختط قناة على وجنتيه لكثرة تذرافه الدموع تكفيراً عن خطيئة جحوده السيد المسيح ، ولم تمنعه دموعه من جوب الارض من اقصاها الى اقصاها ومن نشر الدين المسيحي فيها ، ولم تحل هذه الدموع بينه وبين الاقدام واقتحام الموت والقضاء على الصليب . . . ومن اطلع على رسالات نابليون بونابرت التي كان يبعث بها الى جوزفين اذ كان لم يزل بعد في اول حياته اللامعة العظيمة ، يرى انه كان يبكي بكاء مرًّا . على ان هذه الدموع لم تمنعه من ان يكتسح العالم . . . وكذلك القول عن سعد زغلول وكثيراً ما ذكر عن عاطفته الرقيقة حتى الجزع والبكاء في بعض المواقف . والتاريخ العصري يعلم هل كان زغلول رجل حزم

وعزم ! ! !

على ان خطأ الريحاني عائد ، في نظري ، الى الخلط بين موقفين اثنين كان من الواجب تمييز احدهما عن الآخر . خلط بين موقف الرجل السياسي او القائد او الزعيم رجلاً فحسب ، وموقفه سياسياً او قائداً او زعيماً ، فجرّه هذا الخلط طبعاً الى عدم التمييز بين دموع ودموع .

ويجرّنا هذا الى ان نعرض لثلاث مقالات اثرها المؤلف في الصفحات الاخيرة من كتابه وهي : « الدموع » ؛ « دموع الشاعر » ؛ « ندب وانتداب » .

ففي المقالة الاولى يسأل الريحاني عمّا اذا كانت الدموع في البلاء مفيدة ؟ وبعد ان يحدّد الدمع « علمياً » — كما يقول — يجيب بعدم فائدتها مكذباً اعتقاداً « يصعب اثباته « علمياً » وينزله الكثيرون من اهل الادب والعلم منزلة اليقين » وهو : « ان في البكاء راحة من كرب او حزن او مرض وفيه تنكشف الغموم » .[1] هذا جواب يعطيه المؤلف بعد ان يدلي بملاحظات عجيبة غريبة يظنها تؤيد زعمه ، منها بالحرف : « الوالد يبكي حينما تصطدم ارادته اصطداماً شديداً بارادة امه او ابيه او اخيه الاكبر . والمرأة تبكي اذا اشتدّ عليها كيد الزمان او كيد زوجها ، اما الرجل فهو على الاجمال اقل بكاء من المرأة » . ويزيد : « فاذا كانت الدموع تفيد فلماذا تخص فائدتها بالاطفال قبل الاولاد وبالاولاد قبل النساء وبالنساء قبل الرجال . ويكاد يحرم الرجال خيرها . »[2]

وليس من العسير على كل قارئ لبيب ان يخطئ الريحاني في برهانه هذا الذي يبني عليه مقاله « الدموع » .

وله برهان ثانٍ لاثبات ما قدم ، وهو لا يقل عن الاول ضعفاً . اذ يقول « يرى الطفل القمر فيمد يده اليه يطلبه ثم يطلبه فتعريه سورة من البكاء لانه ابى ان يجيبه وبعد صراخه ودموعه يهدأ جأشه ويدنى ان القمر عصاه . » ويزيد : « فهل افادت الطفل الدموع بعد ان حرق ملحها وجنتيه ومآقيه » ؟[3] .

---

١) انتم الشعراء ، ص ٥٥ ٢) انتم الشعراء ، ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩

فلنفرض ان الدموع وسيلة كما يزعم الريحاني — وهذا خطأ بيّن لان الدموع نتيجة لا وسيلة — فاين يكون موقع كلامه من الحقيقة ؟

يبكي الصبي ليتوصل الى القمر . فالغاية تكون القمر ، والمبتغي يكون الصبي ، وطريقة الوصول (اي الوسيلة) تكون البكاء. فشل الصبي في مسعاه فما هو سبب الفشل ؟

اتكون الطريقة ؟ — لا اذ ان الصبي لو اتخذ وسيلة غير البكاء لنيل طلبه لما كانت اجدته نفعاً. فهو لو اتخذ كرسياً واعتلاه لما كان ابلغه القمر ، ولو تسلق شجرة لما كانت ابانته القمر ، ولو صعد الى اعلى سلّم طويل لما كان بلغ القمر، وهو لو اشرف على الجبال الشامخات والبروج وناطحات السحاب لعجز عن نيل القمر.

فالنقص اذاً من جهة الصبي؟ نعم اذ انه ليس في استطاعة الرجال التوصل الى القمر بمجرد قوامهم البشرية . فانت ترى معي ، ايها القارئ ، ان الذنب في هذا المقام هو ذنب المبتغي لا ذنب الوسيلة (الدموع).

هذا . ومن الثابت الاكيد ان البكاء نفع الصبي وانه قام بواجبه خير قيام . ولم نكن لنطلب منه في حياتنا اكثر مما كان لنا منه الان . . . اننا لا نزجي من البكاء عندما نبكي ان ينيلنا القمر او يعيد الينا حبيبنا او نسيبنا ، ابانا او امنا او اخانا الراحلين . ولكن جلّ ما نرجو منه ان يسري عنا ويفرّج كربنا وغمنا ، وما كان بالمقصر يوماً .

نحن اذاً . . . لا نطلب من البكاء ان يبلغ بنا الى القمر، والى المال الذي نرجوه ، والى الحبيب الذي يجفونا ، والى غيرها من الامال المنشودة . وانما نبكي لحرقة في قلوبنا ناتجة عن عدم مقدرتنا للبلوغ الى القمر . . . الى المال . . . الى الحبيب . . . الى آمالنا المنشودة . فالدموع اذاً ليست وسيلة ، كما يعتقد الريحاني ، وانما هي نتيجة ، فنبكي لان الشيء قد فاتنا ولا نبكي لنتوصل الى الشيء . .

ولنعد الان الى النظريات التي بيديها المؤلف في سياق الموضوع ، والتي لا تزيد الموضوع الا غموضاً وابهاماً . ولنلتفت الى « الحقائق الراهنة » التي يلفت الريحاني نظر القارئ اليها بقوله : « اننا نلفت نظر القارئ الى هذه الحقائق

الراهنة ».[1]

الحقيقة الراهنة الاولى : « ان البكاء في بعض الشعوب الشرقية اكثر منه في الشعوب الغربية . وانه في الشعوب اللاتينية اكثر منه في الشعوب الانكلوسكسونية . وان في الشعوب القاطنة الشمال مثل اهل اسرج وزوج يضعف فيهم (كذا!) الميل الى البكاء ويكاد يزول . فهم قلما يبكون في الملمات » .

«واني فوق ذلك استرعي نظر القارئ الى هذه الحقائق الاخرى الثابتة .»[2]

الحقيقة الاخرى الثابتة : « الصغار اسهل دموعاً من الكبار ، والنساء اكثر بكاء من الرجال ، والرجال في الشعوب الهمجية والمتأخرة في التمدن هم اسرع الى ذرف الدموع والنحيب من الرجال المتمدنين . تنبئنا بذلك المنادب الافريقية وما لا يزال من اثرها في بعض البلدان » وقد زاد ، عافاه الله : « وقل في جبل لبنان »

اما ما جاء في اولى حقائقه الراهنة فاشك في صحته ، لا لانني طفت البلدان وتعرفت الى العيون الشرقية والغربية والعيون اللاتينية والانكلوسكسونية وعيون الشعوب القاطنة الشمال مثل اهل اسرج وزوج ، لا . ولا لانني قرأت عن دموع هذه الشعوب المجلدات الضخمة والمطبوعات القيمة اذ ان اول ما اقرأه في هذا الصدد هو كلام الريحاني هذا . ولكنني اشك في صحة هذا الكلام لانه تدمه بقوله : « انني ألفت نظر القارئ الى هذه الحقائق الراهنة » .

اخاف ان لا يفهمني القرّاء . فالامر بسيط . انكم تذكرون ما جاء في المقالتين الاوليين « داء البكاء » وقلوب تذوب » « من اننا اكثر بكاء واشد انتحاباً من جميع الشعوب » وان « السياسيين ورؤساء الدين والادباء والتجار والفلاحين يبكون عندنا كثيراً » .

---

١) انتم الشعراء ، ص ٥٥

٢) انتم الشعراء ، ص ٥٦-٥٧

فخرفي عظيم ان تكون حقائقه الراهنة هذه كالحقائق تلك ، حقائق ليست على شيء من الحقيقة.

وليس ما ضمّنه حقيقته الثانية الراهنة باوفر نصيباً عند النقّادة الرصين من مضمون الحقيقة الاولى ، اذ انه ما رأيك في هذه النظرية : ان البكاء القليل عند المرء دليل على رجاحة عقله ووفرة رقيه وتمدنه ، والبكاء الكثير دليل على قلة عقله وعلى همجيته وعدم تمدنه ؟

فان صحّ ما توهمه الريحاني من ان البكاء الكثير دليل على نقص في العقل وعدم الرقي والتمدن ، نتج ان اصحاب القلوب الحساسة والمدامع الغزيرة كاعاظم الشعراء هم اقل عقلاً من هذا الحوذي وذاك البوليجي ومن هذه وتلك وهذا وذاك من الذين سوّاهم عهرهم وفجورهم بالحيوانات ، حتى نضبت عواطفهم وجفّت مآقيهم والفيناهم لا يبكون ولا يتحبون.

كل هذا بسيط اذا ما قسناه الى ما يحب الريحاني ان يدخله باسم العلم في عقول العامة من الخطأ المبين.

لقد قال : « ان هذا الاعتقاد — اي ان الدموع تخفف من الحزن وتفرج الكرب والغم — الذي يتزله الكثيرون من اهل العلم والادب منزلة اليقين « يصعب اثباته علمياً »[1]. ذكر العلم ، ومشى تحت راية العلم ، وتوسم باسم العلم ليوهم سامعيه ان الحقيقة في جانبه ، وانه هو العالم والمشترع والمدقق والمحص . . . يجدّد الدمع علمياً ، ويذكر كل فائدة للدموع علمياً : ويكذبنا الخبر وحقيقة الواقع علمياً ؟

***

دموع الشاعر

لم يكتفِ الريحاني بمقاله عن الدموع بل اردفه بمقال آخر اسماه : « دموع الشاعر » يشفله بما فاته في المقالات الاولى من النظريات الغير المنظورة.

« دموع الشاعر » كناية عن مقالة لا يعرف اولها من آخرها ، يبتدئها

---

١) انتم الشعراء ، ص ٥٥

الريحاني بتهمة زور يتهم بها شعراء القطر العربي ويحشرها بثرثرات ونكات مزعومة ليست على شيء من الفكاهة.

هي مزيج اخبار وفكر مختلفة لا يدري القارئ لماذا يعرضها المؤلف اذ انها لا تبرهن عن غاية ولا تحقق مقصداً ، فهي اشبه بحديث سيدات لهن بعض الثقافة ، وقد سمعنا فيما مضى ان هناك ابا العلاء المعري وابن المعتز عند العرب وموسيه ولامرتين وهيجو وڤينيه عند الافرنسيس ، فاخذنا يتحدثن عنهم حديثاً يبعد البعد كله عن حديث الاديب العالم.

انه يستهل القطعة بقوله : « لا اظنك تجد من الدموع في شعر الامم الاوربية كلها مقدار نصف ما عندنا في الشعر العربي . ولا اظنني فيما اقول مبالغاً »[1] : اما انا فاقول ان اتخذنا عدداً معدوداً من جهابذة شعراء الافرنسيس فقط ، لا شعراء الامم الاوربية كلها كما يقول ، وقابلناه بعدد يوازيه من جهابذة شعرائنا ، وان تصفحنا مؤلفات هؤلاء واولئك ، نجد ، رغم ما قال الريحاني ، ان شعراء الافرنسيس العشرة مثلاً يبكون ويتألمون اضعاف اضعاف ما يبكي ويتألم شعراؤنا العشرة . واحب ان لا اكتفي بالتأكيد ، كما فعل الريحاني ، بل ارغب ان اجول وقراني الكرام جولة في ليالي موسيه الشاعر الفرنسوي ، ليتحققوا بانفسهم ما في شعر هذا الشاعر النابغة من الدموع . . . والبكاء ، ولكي يقولوا معي ان في شعر هذا الغربي من الدموع ما ليس يتفق لمائة شاعر شرقي عربي . وقد اخترنا موسيه خاصة لان الريحاني اكثر من ذكر اسمه ، على غير معرفة بميزة شعره . قال شاعر البكاء في قصيدته *La Nuit de Mai* والقول صادر عن ربة الشعر :

Poète, prend ton luth ; c'est moi ton immortelle
Qui t'ai vu, cette nuit, triste et silencieux
Et qui, comme un oiseau que sa couvée appelle,
Pour pleurer avec toi descends du haut des cieux.

وتزيد :

Dis-moi, quel songe d'or nos chants vont-ils bercer ?
D'où vont venir les pleurs que nous allons verser ?

---

١) انتر الشعراء ، ص ٦٢

Est-ce donc vrai ? le cœur se lasse
Comme le corps va se courbant ?
En moi seul toujours m'absorbant
J'irais, vieillard à tête basse.

Oh ! les cheveux blancs et les rides
Je les accepte, j'y consens,
Mais au moins, jusqu'en mes vieux ans
Que mes yeux ne soient pas arides !

Car l'homme n'est laid ni pervers
Qu'au regard sec de l'égoïsme
Et l'eau d'une larme est un prisme
Qui transfigure l'univers.

فالقصيدة هذه تنطق بما اقصر عن تعبيره انا .

قد يبكي شعراؤنا وينوحون ويندبون ، قد يذرفون باسراف دموعهم ويكثرون من تسكابها . ولكنني لم اسمع قط ان شاعراً شاخ وعاد في الذكرى الى حياته الماضية ولم يتألم الا على دموعه الناضبة . كانت خطيئة صاحب « الهوى والشباب » عظيمة عندما بكى آماله المنشودة ، وهواه ، وشبابه الضائع ، فأي خطيئة هي خطيئة Coppée اذاً في عين الريحاني لانه يتألم على مدامع له قد جفت . . .

وعلى اثر هذه المنتخبات نناقش رأياً عرضه الريحاني للبحث والمناقشة وهو «ان الترجمة تفضح السخيف من الشعر مهما عذبت او جزلت الفاظه وتثبت الجيد فيظل شعراً اذا ترجم لاية امة من اللغات »[1] . وباختصار فهو يقول : ان الترجمة لا تفقد القطعة الفنية شيئاً من قيمتها الادبية . وهذا كلام مغلوط . قد لا تنقص الترجمة شيئاً من قيمة القطعة العلمية المترجمة ، وتنقص شيئاً قليلاً من قيمة القطعة الادبية النثرية ، اما انها لا تنقص شيئاً من قيمة الشعر المترجم فهذا غلط بيّن . وقد اثبت سليمان البستاني في مقدمة الالياذة شيئاً من ذلك في

---

(١) انتم الشعراء ، صفحة ٥٢ حاشية ١

كلامه عن الترجمة والتعريب[1]. اما نحن فنقول :

ان ترجمة القطعة الادبية ، شعرية كانت او نثرية ، من لغة الى لغة اخرى تفقد القطعة المترجمة الكثير من حسناتها ، وهذه الخسارة تكبر وتصغر حسب كيان اللغات المترجم منها واليها . فاذا كانت الترجمة من لغة مزجية الى لغة تحليلية او العكس ، فالخسارة جسيمة اذ ان اللغة المزجية بمفرداتها وتعابيرها لا تعطي المراد كما تعطيه اللغة التحليلية او العكس . واذا كانت الترجمة من لغة مزجية او تحليلية الى لغة احدية ، فالقطعة المترجمة خاسرة دون شك. اما اذا كانت الترجمة من تحليلية الى تحليلية او مزجية الى مزجية او احدية الى احدية فتصغر الخسارة ولكنها لا تضمحل . وقد تفدح الخسارة او تقل اذا كانت الترجمة قائمة بين لغات متقاربة الاصل او متشابهة، من لغة انكلوسكسونية او جرمانية مثلاً الى لاتينية فالخسارة فادحة طبعاً . وان قامت الترجمة بين لغات ذات اصل واحد كالافرنسية والايطالية فالخسارة كائنة ولكنها تقل . وهناك اسباب اخرى غير هذه الاسباب الجوهرية لا يدخل في موضوعنا اليوم التبسط فيها .

ندب وانتداب

على اثر « دموع الشاعر » تأتي مقالة « ندب وانتداب » التي تمت ببعض الصلة الى ما تقدم من المقالات المنتقدة ، وقد حشاها باحاديث سياسية لا جدوى من ذكرها في هذا المقام ، الا اننا نتوقف عند ما قاله من انه لا يشك في ان عقلية الافرنجي « في ما يجدّ له ويعده من خطير الامور هي في المحن كعقلية الالماني والانكليزي . فهو لا يبكي . واذا اعتدي عليه او حرم عزيز (كذا !) لديه يشمر عن ذراعه ويقاتل ليظفر بامله المنشود . اجل ان الفرنجي والانكليزي والالماني سواء من هذا القبيل ، اما نحن فنئن ونتأوه ونندب وننوح ثم ننام على ظهورنا مستسلمين مستسلمين :

حبيبي راح ، يا من يرد لي حبيبي
حريتي راحت ، يا من يردها لي

---

١) اطلب مقدمة الالياذة العربية ، ص ٧٤ وما بعدها .

استقلال بلادي راح يا من يرد لبلادي استقلاله »[1] (كذا)

تُرى اذا اعتدى معتدٍ على اللبناني او حُرم عزيزًا لديه الا يُقاتل وينتقم حتى افظع الانتقام احياناً ؟

أوَ هـل يعتقدنا الريحاني على ما يتصوَّر من الذلّ والخنوع ؟ اذًا فليتصفح الجرائد يرَ ما يصدّه عن رأيه ذاك فيذعن للحقيقة ، اللهم ان اعتقد بوجود حقيقة الا في عقله واحكامه . بل انه يرى من خـلال جرائدنا ميلًا شديدًا فينا الى اراقة الدم والانتقام يفسد عليه كل ما بناه في كتابه ، بل يعكس آياته من تطرّف الى تطرّف آخر.[2]

يبقى ان نقول كلمة في الوصايا التي يرفعها الى الشعراء : « عشر وصايا للشعراء » و « خمس عشرة وصية اخرى للشعراء » ، وفي حديثه مع « ربة الشعر» وما قاله فيما يخص «الشاعر والوطن» ، « والشاعر والفيلسوف» ، و«الالم الشخصي والقومي ».

اما وصاياه فقد تعمد الفكاهة في العشر الاولى منها كمثل قوله :

« انا هو القاموس الهك لا اله لك غيري.

« اكرم سيبويه ونفطويه والكساني واخوانهم اجمعين.

« لا تحلف باسم ليلى بالباطل.

« لا تبكِ . . . »[3] وما اليها.

---

١) « انتم الشعراء » ص ٧٧ – ٧٨

٢) هذا عدد واحد من احدى الجرائد البيروتية طالته عرضًا ، يوم قرأتُ هذا الفصل للريحاني ، في ١٧ تشرين الثـاني ١٩٣٣ ، ولا ازال ارى خلاصة اخباره ملقة على الصفحة ٧٧ من كتاب الريحاني بين يدي ، وفيها :

١ً خبر والدٍ يذهب ضحية جمال ابنته .

٢ً حكاية اخ يصرع شقيقه من اجل نصف ليرة سورية .

٣ً امرأتان تتقاتلان فتتجارحان لاسباب تافهة .

فهل هذا مصداق للقول انـا نجود دائمًا بالبكاء . نحن لا نطرئ هذه الطريقة في تحصيل الحقوق . انمـا نورد الواقع ، ولعله في اخبار الجرائد اليومية اقرب الى الحقيقة منه في خيال الريحاني !

٣) انتم الشعراء ، ص ٩

ونترك للقارئ امر الحكم في نكاهتها !

اما الخمس عشرة وصية الاخرى التي وردت في آخر الكتاب فهي جدية حسنة على الاجمال لا عيب فيها غير انها قيلت الف مرة ومرة قبل الريحاني. والجديد منها — وهو القليل — سخيف تافه كمثل هذه :

« وقبل كل شيء وبعد كل شيء. كفكفوا دموعكم — كفكفوا دموعكم فالشمس لا تزال لكم ، والقمر لا يزال رفيقكم ، والربيع لا يخونكم »[1].

اما مناجاته لربة الشعر فهي من نوع ما يكتب ويقرأ للتسلية ، فليس فيها ما يجدر بالذكر.

الا ان حديث ربة الشعر للريحاني مشبوه به واعتقد ان اديبنا خاطب واحدة من وصائف ربة الشعر متجددة في الخدمة لا تفهم عن ربتها تمام الفهم ولا يمكنها افهام ما فهمته منها. فجاء حديثها للامين على نقص ظاهر بين.

الشاعر والوطن

ولننتقل الان الى القسم الاخير من الكتاب حيث وضع المؤلف المقالات الثلاث: «الشاعر والوطن» ، «الشاعر والفيلسوف» ، « الالم الشخصي والقومي».

فالشاعر والوطن ، ونعم ما يوحيه هذا العنوان من المعاني والابحاث النافعة ، اشبه بصفحة من مذكرات اديب منها بمقالة يُراعى فيها البحث والتمحيص والانتقاد المعقول. وهي ، ان رجحت في عيون قارئيها ، تعتبر كمقدمة صغيرة لها جميع صفات المقدمات من المحاباة والقول المرسل الجاري مع جري القلم دون تفكير ولا تنسيق.

اما ما تبع هذه المقالة « كالشاعر والفيلسوف » و «الالم الشخصي والقومي» ففيها بعض ما نتوقعه من الريحاني. الا ان ما ادخله عليها من السياسة المحلية افسد غايتها وباتت حسناتها القليلة غرقى في بحر من السخافات.

... وعلى كل ان في عناوين هذه المقالات اكثر مما في مادتها ، فالعنوان منها في واد وهي في واد ...

* * *

(١) انتم الشعراء ، ص ٩٣

الانشاء

قد يكون انشاء الكتّب من النوع الذي يُطلق عليه ارباب الادب والنقد اسم السهل البسيط ، وهو الذي يستعمله معظم الصحافيين في يومنا . على ان الريحاني يشوّه هذه البساطة احياناً بما يتعمده من السجع المضحك ، وبما يكثر فيه من الحشو وتكرار الكلمة الواحدة في مواقع عديدة ، كما يتراءى ذلك من النتف المذكورة في انتقادنا . . . وكثيراً ما نعثر باغلاط نحوية واملائية تدلّ على ان الريحاني يتساهل كثيراً وقواعد النحو واللغة . فان صحّ ان الانشاء هو الرجل ، فيجب على الريحاني ان يكون متساهلاً وديماً . . . ولكننا نراه على جانب عظيم من القوة والشدة فهو لا يبكي ويطلب من مواطنيه ان لا يبكوا . . . فيا لاجتماع النقيضين ! ! !

ثم ان من يُمعن النظر قليلاً في طريقة المؤلف ولهجته يتحقق انه من ارباب الاعلان ومحبي الطنطنة ، كأنه من اولئك التجار الذين يبذلون جهداً كبيراً في نشر الدعاية لبضاعتهم وعرضها على الناس على الوجه الامثل . فاذا رأيت مثلاً تحت هذا العنوان: «الشاعر والوطن» وهذا: «الالم الشخصي والقومي» وغيرهما ؟

والريحاني ثرثار في ادبه . خذ المقالة الطويلة من مقالاته واقرأها وتفهم ما حوته سطورها ثم عد واحصرها في فكرة لك فهل تشغل فيها الخمسة الاسطر . وقد تتجلى لنا هذه المزية في وصاياه الـ ٢٥ التي تعود كلها الى وصيتين او ثلاث ، وفي المراجعات التي نلمسها في كل مقالة من مقالاته .

والريحاني كثير النظريات قليل الاثبات . لا تكاد تخلو صفحة من صفحات كتابه من نظرية او اثنتين ، وقلما تجد في المؤلف اجمع برهاناً او حجة او استشهاداً للاثبات .

وان في ادب الريحاني ميزة خاصة هي : اجتناب كل ما هو صعب متعب : ان ايجاد البراهين لشيء صعب متعب ، فلا كانت البراهين ! ان الاستشهاد باقوال هذا الشاعر وذاك من شعرائنا الباكين المزعومين يتطلّب قراءة دواوين وقصائد عديدة وكل هذا متعب صعب ، فسلام على الاستشهادات والف سلام . وصعب ايضاً ان يتذكر ما قاله في ابتداء حديثه لكي لا يناقض نفسه فيما سيقول ، فيا

ما احيلى التناقض عند التعب! ويظهر هذا التساهل التام باتم مظاهره في انشائه الذي سبق الكلام عنه. ورأى ان تعليل هفوات الشعراء ونقائصهم صعب متعب فاقلع عن تعليلها واكتفى بالذكر، وهيهات ان يكتفي الذكر.

واليك مظهراً جديداً من عقلية الريحاني: انه يسير بالوهم وينطلق فيه انطلاق غيره في الحقيقة. فمن قوله: «في هذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة...» الى قوله: «اننا اكثر بكاء واشد انتحاباً من جميع الشعوب...» الى غيرهما من اقواله نراه يخبط في الوهم خبط عشواء.

ومن مجالي هذا المظهر الجديد الذي لمسناه في عقليته انه يتكلم عن اداب الافرنج وعن اداب الافرنسيس خاصة كعارف خبير، وهو على ما يظهر اقل الناس علماً بها. ويثبت ذلك قوله: «لا اظنك تجد من الدموع في شعر الامم الاوربية كلها مقدار نصف ما عندنا في الشعر العربي ولا اظنني مبالغاً». وقد اظهرنا العكس. وقوله: «الشعراء الكبار كالمعري وهينه ودوموسه قاسوا من الام الحياة وانواعها ولكنهم لم يبكوا. لا لم يذرفوا الدموع» وقد اثبتنا العكس كذلك.

اجل نحن الشعراء!

هذا ومما يزيد مصيبتنا «بانتم الشعراء» انه سبب لنا مؤلفاً آخر قام بتأليفه ثلاثة وسموه باسم «اجل نحن الشعراء!» وهو اسم معنوي؛ دليل على ماهية الكتاب، كما سترى مما سنذكره في هذا الصدد.

«اجل نحن الشعراء» كتيب لا يزيد حجماً عن «انتم الشعراء» الا سنتيمتراً واحداً في الطول. اما العرض فهو هو في المؤلفين. قد وقع في ١٣٠ صفحة منثورة من اسفل، كما في «انتم الشعراء». طبع في مطبعة «خليفة اخوان» في بيروت، على ورق صقيل لا يختلف البتة عن ورق «انتم الشعراء» وباحرف هي الاحرف نفسها التي طُبع بها كتاب الريحاني وقد غُلف بورق يشابه بطبيعته غلاف «انتم الشعراء».

اما ماهية هذا المؤلف الصغير من حيث الادب فهو معارضة — لها جميع صفات المعارضات — لكتاب الريحاني المذكور.

نعم ان « اجل نحن الشعراء » لمعارضة « انتم الشعراء » . عارضه بالطول والعرض ، والحرف ، والورق ، ونوع الطبع .

« واجل نحن الشعراء » يعارض « انتم الشعراء » باسمه ، وهذا واضح لا حاجة للتوقف عنده ، خاصة عندما نعلم ان « اجل » قد طبعت بالحرف الرقيع و « نحن الشعراء » بالحرف الغليظ العريض . وهو معارضة « لانتم الشعراء » بترتيب مقالاته وبمحتوياته ، والبرهان واضح لمن يطالع الكتابين ، وان مطالعة سطحية . واننا مظهرون هذه المعارضة فيما يلي ، مردفون ببحث سريع عن اسلوب النقد المتبع في كتاب « المثلث الشعري » .

لقد جاء في فهرست « انتم الشعراء » ما ذكرناه آنفاً من عناوين المقالات . وها نحن نذكر الان ما جاء في فهرست « اجل نحن الشعراء » من العناوين : قلوب تذوب — داء البكاء — عشر وصايا للشعراء . والفلاسفة (و« الفلاسفة » زيادة من عندنا ليات المثلث) — ربة الشعر — الشاعر والوطن — الشاعر والفيلسوف — الالم الشخصي والقومي — الدموع — دموع الشاعر — ندب وانتداب .

ويرى القارئ ان لا فرق بين عناوين كتاب « المثلث » وعناوين كتاب الريحاني ، كما ان لا فرق في ترتيب هذه العناوين . اما مزيدات « المثلث » فهي القسم القليل من الكتاب ، وهي الواردة تحت هذه العناوين : مقدمة نحن الشعراء — الناقد — تحديد الادب — الادب الباكي لا بل الادب الحساس — نواحي الشعر الاربع — وهذه : نصائح للاستاذ الريحاني .

اما القسم الاول الذي ذكرناه قائلين انه معارضة « لانتم الشعراء » فقد جاء على وتيرة واحدة . ولهذا فاننا نخصّ له في نقدنا قسماً واحداً واما ما جاء تحت العناوين الجديدة — وهو القليل كما قلنا — فله ميزة تفرقه عن القسم الاول . وهذه الميزة هي انه لا يمكن عدّه معارضة « لانتم الشعراء » ، وهو قسم سنتناوله بالنقد على حدة مبتدئين به منتهين بالقسم الثاني .

يفتتح « المثلث » مقدمة الكتاب بكلمة تأوه على هبوط رجالات الادب العربي في الشرق من مكانتهم الرفيعة الى دركات « كانوا في غنى عنها »

ويخص بالذكر الريحاني . وقد ذكر محاولات الاستاذ ونياته في كتاب « انتم الشعراء » قائلاً : « انه تحرّى ان يذرّ على العيون الرماد » [1] « وتجريد نفسه من نزوات الجريح المهشم » . وقد اتهمه « المثلث » في سياق ذلك بالغش والخداع ، وزيّف عليه وطنيته قائلاً انها تدرّ عليه « موارد مادية فائضة » [2] . وقد قال ان محور الكلام في كتاب الريحاني « النيل من شخصية في لبنان محترمة صاحب الاغنية المعروفة « الهوى والشباب » [3] خاصة والحط من منزلة الشعراء والادباء عامة ... وقد انذر « المثلث » الريحاني « بافول نجمه » [4] . ويذكر « المثلث » بهذه الاثناء برنامج اعماله مما سيطالعه الاديب في كتابه ، ومما سيلمس فيه من الذود عن ادباء الشرق وشعرائه . وقد عاد « المثلث » وقال ان سكوته عن الريحاني وكتابه جريمة ، وزاد ان المطالع يتعثر في هذا الكتاب بكلام بذيء جارح واغلاط نحوية بيانية يضرب صفحاً عنها ، وهو يذكر قبل الانتهاء معايب « انتم الشعراء » ...

صفات هذه المقدمة عدم الترتيب قبل كل شيء ، فالمؤلفون يعلنون برنامجهم وغايتهم من كتابهم في اثناء الحديث عن الريحاني ، وهكذا يتراءى لنا هذا الحديث مبتوراً . ثم هناك ملاحظات لا فائدة منها كالتنبؤ بافول نجم الريحاني ...

وما ان ينجز « المثلث » مقدمته هذه الا وينطلق في بحث عن « الناقد » ذاكراً في الابتداء كلاماً لسنت بوف — دون الاشارة طبعاً الى مصدره — ومقطعاً « لصديق اديب في البرق » — ولا اشارة هناك لعدد البرق المذكور — جاء فيه تحديد للادب ، وكلام منقول عن « امرسون » في الادب — دون الاشارة الى مصدره كذلك — ويعلق عليه ما صحّ له من الاقوال والاحاديث .

وقد جاء على إثر ذلك مقال في « الادب الباكي » فوعدنا « المثلث » « بتحليل » [1] هذا الادب وانطلق ناسياً وعوده ، عابثاً بحرمتها ، مقاماً عن

---

١) اجل نحن الشعراء ، ص ٣
٢) اجل نحن الشعراء ، ص ٣
٣) اجل نحن الشعراء ، ص ٤
٤) اجل نحن الشعراء ، ص ١٢

التحليل الذي يتطلب تعباً وعناء وقوة عقلية . . . الى ايراد ابيات منها ما يعود الى مراثي الاخطل الصغير ومنها ما يعود الى شعر امين نخله من ذاك « الشعر الاخضر العابق بالافراخ والنسمات والذي ملأ برديته الوان وشعور وحياة »[1] كما قال بادئاً تحليل « الشعر الباكي » بشواهد من « الشعر الضاحك » كأن لا فرق عنده يذكر بين التحليل والاستشهاد .

وما ان فرغ من كلامه في « الناقد » حتى انتقل الى كلام له في « نواحي الشعر الاربع » الحس ، الخيال المقيد بالعقل ، قوة التصوير ، واخيراً التعبير . فشحنها بمغروفات عامة منها الصالح ومنها السخيف وكان الاولى به ان يستبدل بها تحديدات موجزة تامة تفهم المطالع ماهية كل ناحية من نواحي الشعر المذكورة .

هذا فضلاً عن انه فصل قوة التصوير عن الخيال وهي نتيجة من نتائج الخيال ؛ فالخيال الحاد ينتقل بصاحبه الى عوالم خفية حيث المحاسن والجمال وحيث يعتقد المنتقل نفسه انه في عالم الحقيقة لقوة خياله الذي يريه الاشياء الغائبة كما لو كانت موجودة يرمقها بعينيه . وما يثبت ان قوة التصوير هي نتيجة من نتائج الخيال ما زاد من ان تصوير المرء للاشياء او تصوره لها يكون قوياً جلياً عندما يكون خياله قوياً حاداً ، ففكتور هيجو مثلاً ان تصور شيئاً فهو يتصوره بقوة تامة . تأمل كيف تصور معركة وترلو ؟ واحيا ابطالها ؟ وكيف تصور الراقصة الاسبانية تنتقل من سطح الى سطح ومن آجر الى آجر ؟ ذاك لان هيجو كان حاد الخيال واسعه .

ونحن نضرب صفحاً عما جاء في النصائح التي خصها « المثلث » بالامام الريحاني .

وقبل الانتقال الى القسم الثاني من النقد ، اي الى القسم الذي يعارض فيه « المثلث » كتاب « انتم الشعراء » ، يجب ان يعلم القارئ ان كل ما انتقد الى الان ، اي القسم الذي يخرج عن المعارضة ، جاء في ما لا يزيد عن العشرين صفحة وما يبقى من الـ ١٣٠ صفحة فمعارضة تامة .

فاجتناباً للملل واعفاء للقراء من عبء ثقيل ، نقتصر في القسم المعارض

---

١) احل نحن الشعراء ، ص ١٤

الذي يتشابه في جميع اقسامه ، على عرض اسلوب النقدة ونقده حيث يستلزم النقد .

ولا نتعرّض لكل مقالة بمفردهـا مختصرين ملخصين كما صنعنا في نقد كتاب الريحـاني لان « اجل نحن الشعراء » ، وخاصة في القسم الثاني ، لا فكر فيـه يستدعي النقد ، وانما هو في مجمله فكاهات ونكات تبرأ خفة الروح من اكثرها .

ونحن ان توقفنا عند هـذا المؤلف الصغير فلأن اسلوب النقد الغث الذي وصفناه في مقـال سبق نشره في المشرق [1] متجسم فيه وظاهر بكل صفاته ومميزاته .

فضلاً عن الشتائم والسباب التي ذكرنا شيئاً منها في مقالنـا « اعاجيب النقد الحديث » ، وفضلاً عن الادعاء والغرور والاعلان التي افصحنا عنها ، نرى في « اجل نحن الشعراء » كيف ان نقدة اليوم يعرضون انتقاداتهم .

فهي تعرض جميعها على هذا النمط : انهم يذكرون مقطعاً من المقال المنتقَد ويعارضونه بمقطع آخر شاحنينه بالتهكم المستهجن او انهم يعلقون عليه ملاحظة نافهة . وهاك مثلاً على ذلك :

لقد جاء في كلام للريحاني صادر عن ربة الشعر [2] : « ولكنهم في شرقك العربي مسخوا اسمي وشخصي فأسموني شيطاناً وحملوني دناً فارغاً طيب الرائحة ومصباحاً دخانه اكثر من نوره وقالوا للشعراء : اتبعوا شيطانكم فتبعوه الى دور الامراء والى المقابر مديح ورثاء ورثاء ومديح . . . »

وكل ما يقوله النقّاد تعليقاً على ذلك : « رويدك ايها الريحاني ، رويدك ايها القابض على زمـام الحكم في الشريعتين الادبية والفلسفية رويدك ولا تزل صواعق غضبك على الشعر والشعراء ! » [3]

وهم ان قرأوا للريحاني مثل هذا المقطع : « ربة الشعر تعشق فينا . ربة

١) المشرق (٣١ [١٩٣٣] ١٢٢)
٢) انتم الشعراء ، ص ١٢
٣) اجل نحن الشعراء ، ص ٢١

الشعر انصفينا . » وهـذا : « اسمع وع ان عندكم لكل وتر من اوتار الوحي شاعراً يفوق جميع الشعراء . عندكم المتنبي في فخامة القول والحماسة والمعري في حرية الفكر والحكمة . . . امـا الافرنج فانك لتجد كل هؤلاء في شاعر واحد كبير من شعرائهم . . . »[1] يعلقون عليه : « لماذا كل هذا الاضطهاد الاعمى يا ابن الفريكة ؟ وعلامَ هذه الثورة على الشعر والشعراء ؟ ألانهم ملأوا خزائن الادب بمؤلفاتهم الضخمة التي اخذت عنها فلسفتك وحكمتك وادبك ؟ »[2] .

يقولون ان هذا اضطهاداً — وهو في الواقع اضطهاد — ولكن ايظهرون للملأ ان الريحاني في قوله هذا اضطهد الشعراء ؟ ايقولون لماذا ؟ لا فتزعتهم نزعة الامام : التأكيد عندهم يغني عن الاثبات وهو حجة . . . وبرهان . فهم كالامام الريحاني انصاف آلهة . . . هم الحق او منبثقون من الحق .

وما جاء على غير هذا النمط في انتقاداتهم فهو على هذا :

« . . . يا فيلسوفنا ما كان اغنانا عن كتيبك « انتم الشعراء » وما كان اغناك عن هذه الناحية من النقد تتخذها عوناً لاظهار الحق المرهوم بحجج ضعيفة وبراهين سخيفة تنقلب على مقامك الادبي المعروف انقلاباً محزناً مؤسفاً »[3] .

ونحن نقرأ « اجل نحن الشعراء » من ألفه الى يائه ولا نرى مقطعاً واحداً يظهر فيه اصحابه « حجج الريحاني الضعيفة » « وبراهينه السخيفة » ، على كونها كثيرة .

فيتضح ان هؤلاء النقدة يرون بعض ما يجب ان يرى في المقال او الكتاب المنتقَد ، ولا يعرفون كيف يظهرونه للادباء . ويخيل لي بهم ، ان رأوا السخافة والركاكة وضعف البراهين ، يعتقدون ان غيرهم رآهـا مثلهم فلا حاجة للاشارة اليها واظهارها .

ومن اعاجيب هذا النقد الحديث ان الناقد يهمل منتقده كما يرى هو . وكما ان المبارز يوجه طعناته الى صدر عدوه للتشفي والانتقام ليس غير ، فعلى الناقد اليوم ، ذي الاسلوب المستحدث ، ان يوجه كلامه للمنقود مباشرة وقصده جل

١) انتم الشعراء ، ص ١٢–١٤

٢) اجل نحن الشعراء ، ص ٣٦ و٣٧

٣) اجل نحن الشعراء ص ٣٤

قصده ادماء قلبه وجرحه بشهرته وسمعته. واننا ذاكرون مقطعاً من « اجل نحن الشعراء » للاستشهاد . ففي مقالهم « ربة الشعر » مثلاً نسمعهم يردّدون بين الفترة والاخرى :

« رويدك ايها الريحاني ، رويدك ايها القابض على...

« ألم تقع عينك يا ايتاذ الا على...

« الم تعِ ذاكرتك الواسعة سوى...يا استاذنا الكريم ...لقد اخطأت المرمى هذه المرّة ، يا سيدنا... انت تريد ان تحرق الشاعر الذي... تريد تقول...يانيلسوفنا! ما كان اغنانا عن...يا سيد،انه لا يزال لك في قلوبنا... لماذا كان هذا الاضطهاد الاعمى يا ابن الفريكة ؟ وعلامَ هذه الثورة على الشعر والشعراء...لماذا ؟... الق المعول عن كتفك... فاسمح لنا اذاً ان نقول لك...بربك من اين تولد كل هذا...انك قمت تدعو الى... خذ لك هذه القنبلة...»

وهنا تنفجر قنبلة « المأثم الشعري » فاعوذ بالله !

وما ان تنفجر القنبلة ويسود الهدوء الا ويعيد « المثلث » كرّته الاولى قائلاً : « اجل لقد كان الاولى بك يا سيد عندنا...فاسمع يا رعاك الله... » ثم يصيح المنتقَد عليه « ذا وجهين ولسانين » ...[1]

***

هذا ما يتقنه نقادنا من فنون النقد الادبي ، من الريحاني الى اصحاب « اجل نحن الشعراء » . ويجب الا ننسى ان الريحاني مبتدع هذا الاسلوب ، ومبتكر هذه الطريقة . وكأنّ الله اراد ان يعاقبه من حيث اخطأ فرماه بين يغربله بغرباله ، فكان ضحية طريقته . ومن الظلم ان نطلب من جهرة هؤلاء النقّاد فوق ذلك ، فهو يخرج عن مقدورهم ، بل يخرج عن اسلوب « النقد الحديث.» هنأهم به الله! وحياهم ! وبيّأهم !

---

١) اجل نحن الشعراء ص ٢١ الى ٤٥.

المطران جرمانوس فرحات

١٦٧٠ – ١٧٣٢

(عن رسم قديم)